

أدب التخاطب في السنة النبوية الشريفة

د. مسعود بن محمد القحطاني

الأستاذ المساعد في الكتاب والسنة- قسم الشريعة والدراسات الإسلامية- كلية الآداب والعلوم الإنسانية- جامعة الملك عبد

العزیز بجدة- المملكة العربية السعودية

malqahtany@kau.edu.sa

مستخلص:

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، أما بعد، أهمية البحث: كان النبي ﷺ أكمل الناس أدبا وخلقا؛ إذ أدبه ربُّه جل وعلا، وحث أمته على التأدب بأداب الشريعة قولاً وفعلًا وتركًا، وما ترك شيئًا من الآداب إلا بينه ﷺ ورغب فيه؛ لتكون حياة المسلم قائمة على الفضائل والمكارم، واعتنى أهل العلم بالتصنيف في هذا الباب العظيم، فصنف فيه البخاري، وابن أبي شيبة، والبيهقي في آخرين.

والأصل في ذلك قوله تعالى ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣]،

ويعتمد البحث على الطريقة الموضوعية والاستقرائية من خلال جمع الأحاديث النبوية الشريفة التي تتحدث عن أدب التخاطب بحيث يندرج تحت كل مبحث ما يناسبه من الأحاديث ثم الاستدلال بأقوال العلماء وفق المنهج العلمي.

تتكون خطة البحث من مقدمة وخاتمة وفهرس المصادر والمراجع وبينهما عشرة مباحث.

النتائج: من نتائج البحث:

١- الإخلاص لله تعالى من أجل الآداب التي ينبغي للمتخاطبين التحلي بها، فهو ميزان الأعمال وعليه تدور رحي القبول.

٢- الجدل والمراء والخصومة من آفات الحوار والتخاطب بين الناس، ومتى سرت هذه الأدواء إلى الخطاب كان ما يفسده أكثر مما يصلحه.

التوصيات:

يوصي الباحث بضرورة إحياء أدب السنة النبوية الشريفة في التخاطب في بين أفراد المجتمع من خلال المحاضرات والدورات وخطب الجمعة والفيديوهات القصيرة ووسائل التواصل الاجتماعي. فهرس المصادر والمراجع.

Summary:

Praise be to God, Lord of the worlds, and peace and blessings of God be upon our Prophet Muhammad and his family and companions as a whole. As for yet, these are the most important

The research included conversation literature in the noble prophetic Sunnah And it depends on the inductive scientific method in tracing the hadiths of the Holy Prophet, so that what suits him from the hadiths of the Prophet are included under each topic, and then deducing the sayings of scholars according to the scientific method.

results which I have reached after God made it easy to complete this research, and they are:

- 1 – Maintaining sincerity in all deeds to God Almighty for the sake of the morals that the interlocutors should adhere to, for it verily is an extremely fundamental criterion upon which acceptance can be sought.
- 2 - Disputatious argumentation and rivalry are awful blights on the well-being of constructive dialogue and communication between people; once proven evident in any discourse one may expect animosity rather than harmony.

The researcher recommends the necessity to revive the literature: Recommendations of the noble Prophet's Sunnah in communicating among members of society through Index of sources and .lectures, courses, Friday sermons, short videos and social media .references

أدب التخاطب في السنة النبوية الشريفة

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، أما بعد، فإن الآداب والأخلاق مما عظمت بها عناية الشرع، فمنزلة الآداب في الشريعة عالية، وهي على أبوابها كلها، ولذا قال ابن القيم في بيان معنى الأدب: "اجتماع خصال الخير في العبد" (١)، وقال ابن حجر: "الأدب: استعمال ما يُحمد قولاً وفعلاً" (٢)، فذهب الأدب بخيري الدنيا والآخرة.

أهمية البحث: كان النبي ﷺ أكمل الناس أدباً وخلقاً؛ إذ أدبه ربُّه جل وعلا، وحث أمته على التأدب بآداب الشريعة قولاً وفعلاً وتركاً، وما ترك شيئاً من الآداب إلا بينه ﷺ ورغب فيه؛ لتكون حياة المسلم قائمة على الفضائل والكمال، واعتنى أهل العلم بالتصنيف في هذا الباب العظيم، فصنف فيه البخاري، وابن أبي شيبة، والبيهقي في آخرين.

والناظر اليوم في أحوال الناس يجد تقصيراً ظاهراً في هذا الباب عند الخاصة والعامة، ومن الآداب العظيمة التي حصل فيها الغلط والتقصير: أدب التخاطب؛ وأعني بذلك ما يقع بين الناس في أحاديثهم ومجالسهم ومنتدياتهم وما يتصل بذلك، ويدخل في ذلك ما يقع في مجالس العلم والبحث والمناظرة وما إليها، والتخاطب بين الخلق ينبغي أن يجري على سنن الشريعة وقوانينها وآدابها، وإلا ترتب على ذلك من الفساد ما لا يخفى. والأصل في ذلك قوله تعالى ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ ۗ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣]، قال ابن كثير: «يأمر تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يأمر عباد الله المؤمنين، أن يقولوا في مخاطباتهم ومحاوراتهم الكلام الأحسن والكلمة الطيبة؛ فإنه إذ لم يفعلوا ذلك، نزغ الشيطان بينهم، وأخرج الكلام إلى الفعال، ووقع الشر والمخاصمة والمقاتلة» (٣). وقد كان هذا الباعث لي على كتابة هذا البحث الذي عنونته "أدب التخاطب في السنة النبوية"، واقتصرته فيه على مهمات الآداب، وما يكثر فيه الغلط، إذ البسط والتفصيل يطول، ولا يتسع له المقام .

(١) مدارج السالكين (٣/٤٠٠).

(٢) فتح الباري (١٠/٤٠٠).

(٣) تفسير ابن كثير (٥/٨٦).

منهج البحث: يعتمد البحث على الطريقة الموضوعية والاستقرائية من خلال جمع الأحاديث النبوية الشريفة التي تتحدث عن أدب التخاطب بحيث يندرج تحت كل مبحث ما يناسبه من الأحاديث ثم الاستدلال بأقوال العلماء في الحديث وفق المنهج العلمي.

خطة البحث: يتكون البحث من مقدمة وخاتمة وفهرس المصادر والمراجع وبينهما عشرة مباحث على النحو التالي:

- المبحث الأول: الإخلاص لله تعالى في الخطاب.
- المبحث الثاني: العلم بمادة الخطاب.
- المبحث الثالث: الصدق في الخطاب.
- المبحث الرابع: البيان في المخاطبة والفصاحة.
- المبحث الخامس: الحلم والرفق في الخطاب.
- المبحث السادس: البعد عن الجدل والمراء.
- المبحث السابع: الإعراض عن اللغو وما لا فائدة فيه.
- المبحث الثامن: عدم رفع الصوت في الخطاب.
- المبحث التاسع: حسن الإصغاء للمتكلم.
- المبحث العاشر: التواضع ونبذ الكبر.
- الخاتمة وفيها أهم النتائج والتوصيات.
- فهرس المصادر والمراجع.

وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

أدب التخاطب في السنة النبوية الشريفة

المبحث الأول: الإخلاص لله تعالى في الخطاب:

الإخلاص ميزان الأعمال، وعليه تدور رَحَى القبول، وحقيقته: أن يبتغي العبد بعمله وجه الله، لا يعمل رياء ولا سمعة، ولا طلباً لمنصب أو جاه أو غير ذلك.

ومن ميادين الإخلاص وأبوابه: إخلاص العبد خطابه وحديثه، فكثير ممن يتعاطون الحديث في مجالس العلم والبحث والمناظرة وغير ذلك = إنما تسيّرهم حظوظ نفوسهم وأهواؤهم، ولا يرفعون رأساً بتصحيح النية وإخلاص القلب لله تعالى، ومما جاء عن النبي ﷺ في هذا الباب قوله: (مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُجَارِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ، أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، أَوْ يَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ أُدْخِلَهُ اللَّهُ النَّارَ) (٤)، فهذا لم يطلب العلم لله، وإنما لحظوظ

(٤) أخرجه الترمذي كتاب: أبواب العلم، باب: ما جاء فيمن يطلب بعلمه الدنيا (٣٢/٥)، حديث رقم (٢٦٥٤) من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه، وقال: "هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وفي إسناده إسحاق بن يحيى بن طلحة. قال الترمذي: ليس بذاك القوي عندهم، تكلم فيه من قبل حفظه"، وله شاهد من حديث ابن عمر وجابر وحذيفة رضي الله عنهم بأسانيد متكلم فيها؛ فأما حديث ابن عمر فأخرج الترمذي كتاب: أبواب العلم، باب: ما جاء فيمن يطلب بعلمه الدنيا (٣٣/٥)، حديث رقم (٢٦٥٥)، وقال: هذا حديث حسن غريب، والنسائي في الكبرى كتاب: العلم، باب: من تعلم العلم لغير الله عز وجل (٣٩٢ / ٥)، حديث رقم (٥٨٧٩)، وابن ماجه في المقدمة، باب: الانتفاع بالعلم

النفس، والاستعلاء على الخلق، وصرف الوجوه إليه، وطلب الحظوة والمال والجاه والمفاخرة وغير ذلك مما يقدح في أصل عمله، فكان جزاؤه النار والعياذ بالله.

ومما يتصل بهذا الباب قوله ﷺ: (مَنْ قَامَ بِخُطْبَةٍ لَّا يَلْتَمِسُ بِهَا إِلَّا رِيَاءً وَسَمْعَةً، أَوْفَقَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَوْفَقَ رِيَاءٍ وَسَمْعَةٍ) (٥).

قال السندي: "قوله: (مَوْفَقَ رِيَاءٍ وَسَمْعَةٍ) أي: موقفاً يجزيه فيه جزاء الرياء والسمعة، أو يظهر فيه رجاؤه وسمعته، أو موقفاً يظهر له فيه أنه كرامة، ويكون فيه فضيحةً يسمع بها الخلق، والله تعالى أعلم" (٦).

وقد كان أئمة السلف رحمهم الله يعظّمون هذا المقام جداً، ويشدّدون في التحذير مما يحدّثه ويضعفه، فهذا عبد الله بن مسعود ﷺ يقول: "لا تعلّموا العلم لثلاث: لتماموا به السفهاء، أو لتجادلوا به الفقهاء، أو لتصرفوا به وجوه الناس إليكم، وابتغوا بقولكم وفعلكم ما عند الله، فإنه يبقى ويذهب ما سواه" (٧).

وهذا الإمام الشافعي رحمه الله قد اشتهر أمره في إخلاص النية وتجريدها في مجالس العلم والبحث والمناظرة، حتى عقد البيهقي في "مناقبه" باباً في "ما جاء في صحة نية الشافعي، وجميل قصده في وضع الكتب ومناظرة من خالفه" (٨)، وأورد فيه جملة حسنة صالحة من الأخبار، أقتصر على بعضها مما يتسع له البحث هنا.

عن الربيع بن سليمان المرادي قال: سمعت الشافعي يقول: "ما ناظرت أحداً قط على الغلبة، وبودي أن جميع الخلق تعلموا هذا الكتاب -يعني كتبه-، ولا ينسب إليّ شيء منه".

وقال رحمه الله: "ما ناظرت أحداً قط إلا على النصيحة".

وقال ﷺ: "ما كلمت أحداً قط إلا ولم أبال بين الله الحق على لساني أو لسانه".

وبمثل هذا ارتفع الإمام الشافعي، وخضع الناس لعلمه، وبلغ ما بلغ، فلم يكن يبغى الغلبة والشهرة والظهور على خصومه، بل كان ينشد الحق ولو على لسانهم، مما يدل على تجرده، ولهذا كان كثير ممن يناظرهم

والعمل به (٩٣/١)، حديث رقم (٢٥٣). وأما حديث جابر؛ فأخرجه ابن ماجه في المقدمة، باب: الانتفاع بالعلم والعمل به (٩٣/١)، حديث رقم (٢٥٤). وأما حديث حذيفة فأخرجه ابن ماجه أيضاً في المقدمة، باب: الانتفاع بالعلم والعمل به (٩٦/١)، حديث رقم (٢٥٩). وفي الباب عن جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ، والرواية في هذا الباب ليّنة كما ذكر الإمام أبي جعفر العجلي في الضعفاء (٢/ ١٣٠)، فقال: "في هذا الباب أحاديث عن جماعة من أصحاب النبي ﷺ ليّنة الأسانيد كلها". ومع ذلك فإن النصوص تشهد لصحة معاني هذه الأحاديث.

(٥) أخرجه أحمد (٢٥/ ٤٧٥)، حديث رقم (١٦٠٧٣)، وابن أبي عاصم في الأحاد والمثاني (٥/ ٤٤)، حديث رقم (٢٥٨٢)، والطبراني في "المعجم الكبير" (٢/ ٤٢)، حديث رقم (١٢٢٧) من حديث بشير بن عقبة ﷺ، وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٢/ ١٩١): "رجاله موثقون"، وحسن إسناده الشيخ شعيب الأرنؤوط في الموضوع المشار إليه من المسند.

(٦) حاشية السندي على مسند أحمد (٩/ ٢١٠).

(٧) أخرجه إسحاق كما في المطالب العلية (١٢/ ٦٤٤)، حديث رقم (٣٠٤٩)، والدارمي في سننه (١/ ٣١٧)، حديث رقم (٢٦١) والخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه (٢/ ١٧٤) واللفظ له.

(٨) مناقب الشافعي (١/ ١٧٣).

الشافعي ويجادلونه يرجعون عن أقوالهم ومذاهبهم(٩).

المبحث الثاني: العلم بمادة الخطاب:

أعجبتني كلمة -كنت قد قرأتها قديماً- للأستاذ محمد الراشد يقول فيها: "العلم بالتعلم، ولا بد من أخذ النفس بالشدّة، وإطالة المجالس، وإحياء المحاورات، ولأن يتملق الداعية لمالكِ حكمة حتى يمنحها له خير له من أسمار الأقران، وهذا عصر ثورة العلم ومنهجية الأعمال، والعمق شرط للمضي في المنافسة، وما عادت الأحرف اليسيرة تدير نقاشاً، أو ترشح صاحبها لندوة أو تقرير ناجح أو مقالة لها رواج أو خطبة ينصت لها الناس، بل المليء هو سيد الساحات وأبو المنابر، وما نظن أن حائز العلم الشرعي يستطيع بثه ما لم يضيف إليه علماً باللغة والأدب والتاريخ ومقدمات الاقتصاد والإدارة والعلوم التطبيقية مع نظرة في الفلسفة، وهذا الشمول هو مظنة تأثيره في أوساط المتقنين، وبدونه يتلثم أو يضطرب عرضه"(١٠).

نعم، ما عادت الأحرف اليسيرة تدير نقاشاً، أو.. إلخ، والمتصدر لخطاب الخلق ومحاورتهم أولُ عدته وسلاحه -بعد الإخلاص- العلم والاطلاع، فالجاهل يفسد أكثر مما يصلح، وما عاد الارتجال يقيم حقاً، أو يُزهق باطلاً، أو ينصر منهجاً.

وانظر إلى تأديب الله تعالى لنبيه ﷺ، وأمره بالكف والسكوت عما لا علم له به، وهو من هو توفيقاً وتأييداً من ربه.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

وقال سبحانه: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، والآيات في الباب كثيرة، والمقصود هنا التمثيل.

ولما سأله جبريل ﷺ في الحديث المشهور الذي يرويه عمر ﷺ عن الساعة قال ﷺ: (مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ)(١١).

ومن الأحاديث الدالة على أهمية العلم وفائدته في هذه المقامات: ما رواه أبو سعيد الخدري ﷺ قال: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا حَدِيثًا طَوِيلًا عَنِ الدَّجَالِ، فَكَانَ فِيهَا يُحَدِّثُنَا بِهِ أَنَّهُ قَالَ: (يَأْتِي الدَّجَالُ -وهو مُحَرَّمٌ عَلَيْهِ أَنْ يَدْخُلَ نِقَابَ الْمَدِينَةِ- فَيَنْزِلُ بَعْضَ السِّبَاخِ الَّتِي تَلِي الْمَدِينَةَ، فَيَخْرُجُ إِلَيْهِ يَوْمَئِذٍ رَجُلٌ، وَهُوَ خَيْرُ النَّاسِ -أو من خيار الناس- فَيَقُولُ أَشْهَدُ أَنَّكَ الدَّجَالُ الَّذِي حَدَّثْتَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَدِيثَهُ، فَيَقُولُ الدَّجَالُ: أَرَأَيْتُمْ إِنْ قَتَلْتُ هَذَا ثُمَّ أَحْبَبْتُهُ، هَلْ تَشْكُونَ فِي الْأَمْرِ؟ فَيَقُولُونَ: لَا، فَيَقْتُلُهُ ثُمَّ يُحْيِيهِ، فَيَقُولُ: وَاللَّهِ مَا كُنْتُ فِيكَ أَشَدَّ بَصِيرَةً مِنِّي الْيَوْمَ، فَيُرِيدُ الدَّجَالُ أَنْ يَقْتُلَهُ فَلَا يُسَلِّطُ عَلَيْهِ)(١٢). فهذا الشاب ما نجا من فتنة الدجال إلا بالعلم والبصيرة، ولو لم

(٩) انظر: عبقرية الإمام الشافعي (ص ١٦٠ - ١٦١) لمشاري الشثري.

(١٠) معاً نتطور (ص ١٥).

(١١) أخرجه مسلم كتاب: الإيمان، باب: معرفة الإيمان، والإسلام، والقدر وعلامة الساعة (٣٦/١)، حديث رقم (٨).

(١٢) أخرجه البخاري كتاب: الفتن، باب: لا يدخل الدجال المدينة (٦٠/٩)، حديث رقم (٧١٣٢) واللفظ له، ومسلم

كتاب: الفتن وأشراف الساعة، باب: في صفة الدجال، وتحريم المدينة عليه وقتله المؤمن وإحيائه (٢٢٥٦/٤)،

حديث رقم (٢٩٣٨).

يكن بصيرا بأمر الدجال لضل مع من ضلوا، وفتن مع من فتنوا.
واعترِبَ في هذا بحال الصحابة ﷺ بعد وفاة النبي ﷺ، إذ وقع الخلاف بينهم في وفاته، وهو أول خلاف وقع في الأمة بعده، فهاج الناس واضطربوا لهول وفجاعة ما نزل بهم، حتى إن عمر ﷺ -وهو من لا يخفى في الناس مقامه- يقول: "لا أسمع أحدا يذكر أن رسول الله ﷺ قبض إلا ضربته بسيفي هذا" (١٣)، ويقول: "إن رسول الله ﷺ لم يمِت، ولكنَّ ربه أرسل إليه كما أرسل إلى موسى، فمكث عند قومه أربعين ليلة، والله إنِّي لأرجو أن يعيش رسول الله ﷺ، حتى يقطع أيدي رجال من المنافقين وألسنتهم، يزعمون -أو قال: يقولون- إن رسول الله ﷺ قد مات" (١٤).

فانظر وتأمل حاله ﷺ، فكيف بمن هو دونه من صحابة رسول الله ﷺ، وفي هذا المقام الذي تطيش فيه الأحلام قام أبو بكر الصديق -وهو أعلم الصحابة بالله- في الصحابة مقام النبي ﷺ، وبصرهم بالهدى، وعرفهم الحق الذي عليهم.

وقلب معي ناظرِك في هذا الخبر لتعلم عظم المقام الذي قامه أبو بكر في الصحابة ﷺ، ثم لتعلم أنه لم يقمه إلا بما معه من العلم.

قال الزهري: قال أبو سلمة: أخبرني ابن عباس ﷺ أن أبا بكر خرج وعمر يكلم الناس، فقال: اجلس، فأبى عمر أن يجلس، فقال: اجلس، فأبى أن يجلس، فتشهد أبو بكر فمال الناس إليه وتركوا عمر، فقال: أيها الناس من كان منكم يعبد محمداً فإن محمداً ﷺ قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت. قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

قال [ابن عباس ﷺ]: والله لكأن الناس لم يكونوا يعلمون أن الله جل وعلا أنزل هذه الآية إلا حين تلاها أبو بكر، فتلقاها منه الناس كلهم، فلم تسمع بشرا إلا يتلوها.

قال الزهري: وأخبرني سعيد بن المسيب أن عمر بن الخطاب قال: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها عقرت حتى ما تفلني رجلاي، وأهويت إلى الأرض، وعرفت حين سمعته تلاها أن رسول الله ﷺ قد مات (١٥).

وقال أنس ﷺ: "خطبنا أبو بكر ﷺ، وكنا كالثعالب، فما زال يشجعنا حتى صرنا كالأسود" (١٦).

(١٣) أخرجه الترمذي في "الشمائل المحمدية"، باب: ما جاء في وفاة النبي صلى الله عليه وسلم (ص ٣٣٦)، حديث رقم (٣٨٤)، واللفظ له، والنسائي في الكبرى كتاب: وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، باب: كيف صلى على رسول الله صلى الله عليه وسلم (٦/ ٣٩٥)، حديث رقم (٧٠٨١) من حديث سالم بن عبيد، وإسناده صحيح.
(١٤) أخرجه أحمد (٢٠/ ٣٣٠)، حديث رقم (١٣٠٢٨) من حديث أنس ابن مالك ﷺ، وإسناده صحيح، وأصل الحديث متفق عليه.

(١٥) أخرجه البخاري تعليقا، كتاب: الجنائز، باب: الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج في أكفانه (٢/ ٧١)، عقيب حديث (١٢٤١)، وابن حبان كتاب: التاريخ، باب: وفاة النبي صلى الله عليه وسلم (١٤/ ٥٨٨)، حديث رقم (٦٦٢٠)، واللفظ له، وإسناده صحيح.

(١٦) ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في "منهاج السنة" (٨/ ٥٢)، ولم أقف عليه مسندا.

وقالت عائشة رضي الله عنها: "فما كانت من خطبتهما من خطبة إلا نفع الله بها، لقد خوفَ عمر الناس، وإن فيهم لنفاقاً، فردهم الله بذلك، ثم لقد بصَّرَ أبو بكر الناسَ الهدى، وعرفهم الحق الذي عليهم، وخرجوا به يتلون: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾" (١٧) [آل عمران: ١٤٤].

وبهذا العلم الذي حواه صدر الصديق ﷺ حفظ الله دينه وصحابة نبيه ﷺ من الفتن التي هجمت عليهم بعد وفاته، وقام فيهم أبو بكر مقام النبي ﷺ، وبه يظهر لك أثرُ العلم وعظيم نفعه على الناس سيما في أوقات المحن والشدائد.

المبحث الثالث: الصدق في الخطاب:

"صدق اللهجة: عنوان الوقار، وشرف النفس، ونقاء السريرة، وسمو الهمة، ورُجحان العقل، ورسول المودة مع الخلق، وسعادة الجماعة، وصيانة الديانة" (١٨).

الصدق: مطابقة الكلام للواقع والاعتقاد معاً (١٩)، وهو من أشرف خصال أهل الإيمان، ومن عري منه تلبس بشعبة من شعب النفاق؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النَّفَاقِ حَتَّى يَدْعَهَا: إِذَا أُوْتِمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ..» (٢٠).

والكذوب مُبْغِضٌ مِنَ الْحَقِّ وَالْخَلْقِ، مَنْزُوعُ التَّقَةِ، مَخْرُومُ الْمُرُوَّةِ، فَاقْدُ لِلْقَبُولِ، لَا يَقْبَلُ النَّاسُ كَلَامَهُ وَلَوْ صَدَقَ.

وصدق المرء في حديثه ومجالسه من أعظم أسباب القبول والتوفيق، فالصادق في خطابه نور، ولكلامه أثر، واعتبر في هذا بحال النبي ﷺ مع قومه، كيف كانت عداوتهم له، وتشنيعهم عليه، ومع ذلك يصدقونه في كل ما يخبرهم، وما منعهم من الإيمان به أنهم يتهمونه بالكذب -حاشاه ﷺ-، وإنما هو الجحود والعناد ﴿فَأَنَّهُمْ لَأَيُّ كَذَّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] وَرَهْطَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ، خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى صَعِدَ الصَّفَا فَهَتَفَ: (يَا صَبَاحَاهُ)، فَقَالُوا: مَنْ هَذَا؟ فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ، فَقَالَ: (أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلاً تَخْرُجُ مِنْ سَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِي؟) قَالُوا: مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا.. الحديث (٢١).

(١٧) أخرجه البخاري تعليقاً كتاب: أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب: قول النبي صلى الله عليه وسلم: «لو كنت متخذاً خليلاً» (٦/٥)، حديث رقم (٣٦٦٩، ٣٦٧٠)، وقد تتبع الأستاذ الدكتور نزار ريان تقبله الله مواقف الصحابة ﷺ بعد وفاة النبي ﷺ، وأثر ذلك عليهم في كتابه الماتع "وأظلمت المدينة" (ص ٨٨-٩٧)، فانظره فإنه مهم.

(١٨) حلية طالب العلم (ص ٥٧) لبكر أبو زيد.

(١٩) انظر: المفردات في غريب القرآن (ص ٤٧٨-٤٧٩) للراغب الأصفهاني.

(٢٠) أخرجه البخاري كتاب: الإيمان، باب: علامة المنافق (١/١٦)، حديث رقم (٣٤)، واللفظ له، ومسلم كتاب: الإيمان، باب: بيان خصال المنافق (١/٧٨)، حديث رقم (٥٨)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢١) أخرجه البخاري كتاب: تفسير القرآن، سورة تبت يدا أبي لهب (٦/١٧٩)، حديث رقم (٤٩٧١) واللفظ له،

فانظر كيف صدقوه في هذا الأمر العظيم الجلل، لأنهم لم يجربوا عليه الكذب، فالصدق معدنه وشعاره ﷺ. وفي حديث أبي سفيان صخر بن حرب ﷺ الطويل مع هرقل ما يشهد لهذا، وفيه: قَالَ [هرقل]: فَهَلْ كُنْتُمْ تَتَّهَمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ قُلْتُ: لَا...، ثم قال هرقل: وَسَأَلْتُكَ، هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهَمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ، فَذَكَرْتُ أَنْ لَا، فَقَدْ أَعْرِفُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَذَرَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ وَيَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ... الحديث (٢٢).

وفي حديث كعب بن مالك ﷺ -لما تخلف عن غزوة تبوك- وحواره مع النبي ﷺ موعظة بليغة، وعبرة عظيمة؛ إذ تحرى الصدق ولم يكذب على النبي صلى الله عليه وسلم، والحديث طويل، وفيه: فَقَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ: فَلَمَّا بَلَغَنِي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ تَوَجَّهَ قَافِلًا مِنْ تَبُوكَ حَضَرَ بَنِي (٢٣)، فَطَفِقْتُ أَتَذَكَّرُ الْكَذِبَ وَأَقُولُ: بِمَ أَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ عَذَابًا؟ وَأَسْتَعِينُ عَلَى ذَلِكَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ مِنْ أَهْلِي، فَلَمَّا قِيلَ لِي: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَظَلَّ قَادِمًا زَاحَ عَنِّي الْبَاطِلُ حَتَّى عَرَفْتُ أَنِّي لَنْ أَنْجُو مِنْهُ بِشَيْءٍ أَبَدًا، فَاجْمَعْتُ صِدْقَهُ، وَصَبَّحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَادِمًا، وَكَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ فَرَكَّعَ فِيهِ رَكَعَتَيْنِ ثُمَّ جَلَسَ لِلنَّاسِ، فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ جَاءَهُ الْمُخَلَّفُونَ، فَطَفِقُوا يَعْزُرُونَ إِلَيْهِ وَيَحْلِفُونَ لَهُ، وَكَانُوا بَضْعَةً وَثَمَانِينَ رَجُلًا، فَقَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَانِيَتَهُمْ، وَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ، وَوَكَّلَ سِرَائِرَهُمْ إِلَى اللَّهِ، حَتَّى جَنَّتْ، فَلَمَّا سَلِمَتْ تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ الْمُغْضَبِ، ثُمَّ قَالَ: (تَعَالَى) فَجَنَّتْ أُمِّي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ لِي: (مَا خَلْفَكَ؟ أَلَمْ تَكُنْ قَدْ ابْتَعْتِ ظَهْرَكَ؟) قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي وَاللَّهِ لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا لَرَأَيْتُ أَنِّي سَاحِرٌ مِنْ سَخَطِهِ بَعْدُ، وَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلًا، وَلَكِنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَنْ حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ حَدِيثَ كَذِبٍ تَرْضَى بِهِ عَنِّي لِيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يُسَخِّطَكَ عَلَيَّ وَلَنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ صِدْقٍ تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ إِنِّي لَأَرْجُو فِيهِ عَفْوَ اللَّهِ، وَاللَّهُ مَا كَانَ لِي عَذْرٌ، وَاللَّهُ مَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى وَلَا أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتَ عَنكَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (أَمَّا هَذَا، فَقَدْ صَدَّقَ، فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِيكَ) (٢٤).

فبصدقه نجاه الله تعالى، وكانت عاقبة الكاذبين الخسران في الدنيا والآخرة.

ومن تأمل اليوم أحوال الناس وأحاديثهم ومجالسهم يجد فشو الكذب وشيوعه، فمنهم من يكذب تطرفًا واستطرافًا، ومنهم من يكذب رياءً وسمعةً، ومنهم من يكذب غرورًا واستكبارًا، ومنهم من يفعل ذلك بغيا وحسداً، وللناس في ذلك طرائق كثيرة، وكلها رذيلة ساقطة تنتهي بصاحبها والعياذ بالله إلى المقت والسقوط من عين الله ثم من عيون الخلق.

ومسلم كتاب: الإيمان، باب: في قوله تعالى: {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ} [الشعراء: ٢١٤] (١/ ١٩٣)، حديث رقم (٢٠٨).

(٢٢) أخرجه البخاري كتاب: بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم (٨/١)، حديث رقم (٧) واللفظ له، ومسلم كتاب: الجهاد والسير، باب: كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام (٣/ ١٣٩٣)، حديث رقم (١٧٧٣).

(٢٣) البث: أشد الحزن.

(٢٤) أخرجه البخاري كتاب: المغازي، باب: حديث كعب بن مالك، وقول الله عز وجل: {وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَقُوا} [التوبة: ١١٨] (٣/٦)، حديث رقم (٤٤١٨)، ومسلم كتاب: التوبة، باب: حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه (٤/ ٢١٢٠)، حديث رقم (٢٧٦٩) كلاهما من طريق عبد الله بن كعب عن أبيه، واللفظ لمسلم.

المبحث الرابع: البيان في المخاطبة والفصاحة:

إن من أعظم ما يؤثر في نفس المخاطب حسن بيان من يخاطبه وفصاحته وبلاغته ولذا كانت لغة البيان هي اللغة العربية أصل من أصول الشريعة، ومفتاح لعومه، بها أنزل القرآن، ونطق رسول الله ﷺ معلماً ومبيناً ومبلغاً.

قال الله تعالى: (وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا) [الرعد: ٣٧].

وقال تعالى: (كِتَابٌ فَصَّلْتُ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) [فصلت: ٣]، والآيات في هذا كثيرة.

واللغة العربية مادة الخطاب الذي يتخاطب به الناس، ولذلك ينبغي الحرص على تعلمها والتزامها في مجالس العلم والحديث والحوار والمناظرة وغير ذلك مما يتصل بحياة الناس.

قال الإمام الشافعي: "فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده، حتى يشهد به أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله، ويتلو به كتاب الله، وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير، وأمر به من التسييح والتشهد وغير ذلك، وما ازداد من العلم باللسان الذي جعله الله لسان من ختم به نبوته، وأنزل به آخر كتبه= كان خيرا له" (٢٥).

ومعلوم أن المرء كلما كان أفصح وأبلغ عظم أثره وتأثيره في نفوس مستمعيه ومحدثيه، فإن لفصيح الكلام أثرا لا يُنكر ولا يُدفع، ولهذا قال الله تعالى -أمرا نبيه ﷺ في سياق الحديث عن المنافقين-: ﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ وَعَظِّمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٤]، وسأل موسى ﷺ ربه عز وجل حين أمره أن يذهب إلى فرعون لتبليغ الرسالة= أن يرسل معه أخاه هارون، معللا هذا بقوله: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ [القصص: ٣٤]، ومراد موسى ﷺ: أن هارون أقدر على إقامة البراهين، وبسط الحجج، وتلخيص الأدلة، ودفع الشبهات، وإفحام الخصوم، وهذا أدعى إلى تصديق رسالته وقبولها (٢٦)، وهذا ظاهر جدا؛ فإن "الفصيح الذرب اللسان يستميل قلوب الناس إليه بحسن فصاحته ونظم كلامه، فالأنفس تكون إليه تائفة، والأعين إليه رامقة" (٢٧).

ومن الأحاديث الدالة على أهمية الفصاحة والبيان في الخطاب: ما جاء عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه جاء رجلاً من المشرك فخطباً، فقال النبي ﷺ: (إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا) (٢٨). وهذا الحديث تأوله جماعة من أهل العلم على المدح، وذهب بعضهم إلى أن المراد به الدم، وفي هذا يقول

(٢٥) الرسالة (٤٨-٤٩).

(٢٦) انظر: مفاتيح الغيب (٥٩٦/٢٤)، وروح المعاني (٢٨٦/١٠)، والتحرير والتنوير (١١٦/٢٠).

(٢٧) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء (ص ٢١٩) لابن حبان البستي.

(٢٨) أخرجه البخاري كتاب: النكاح، باب الخطبة (١٩ / ٧)، حديث رقم (٥١٤٦)، وأخرجه أيضاً في كتاب: الطب، باب: إن من البيان سحراً (١٣٨/٧)، حديث رقم (٥٧٦٧) وفيه: فَعَجِبَ النَّاسُ لِبَيَانِهِمَا؛ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا أَوْ إِنَّ بَعْضَ الْبَيَانِ لَسِحْرٌ)، وأخرج مسلم في كتاب: الصلاة، باب: تخفيف الصلاة والخطبة (٥٩٤/٢)، حديث رقم (٨٦٩) من حديث عمار بن ياسر ﷺ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: (إِنَّ طَوْلَ صَلَاةِ الرَّجُلِ وَقَصْرَ خُطْبَتِهِ مَنَّةٌ مِنْ فَهْمِهِ فَأَطِيلُوا الصَّلَاةَ وَأَقْصِرُوا الْخُطْبَةَ وَإِنَّ مِنَ الْبَيَانِ سِحْرًا).

الإمام الحافظ ابن عبد البر: "واختلف في المعنى المقصود إليه بهذا الخبر، فقيل: قصد به إلى ذم البلاغة؛ إذ شبهت بالسحر، والسحر محرم مذموم؛ وذلك لما فيها من تصوير الباطل في صورة الحق، والتفهيق والتشديق؛ وقد جاء في الثرثارين المتفهيقين ما جاء من الذم، وإلى هذا المعنى ذهب طائفة من أصحاب مالك، واستدلوا على ذلك بإدخال مالك له في موطنه في باب ما يكره من الكلام، وأبى جمهور أهل الأدب والعلم بلسان العرب إلا أن يجعلوا قوله ﷺ: (إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا) مدحا وثناء وتفضيلا للبيان وإطراءً، وهو الذي تدل عليه سياقة الخبر ولفظه.. (٢٩). فتشبيه البيان بالسحر لما له من أثر في استمالة القلوب وصرفها إلى ما يدعو إليه القائل، والسحر أصله الصرف.

وقد قال عمر بن عبد العزيز لرجل سأله حاجة فأحسن المسألة، فأعجبه قوله فقال: "هذا والله السحر الحلال" (٣٠).

وقال مالك بن دينار: "ما رأيت أحداً أبين من الحجاج بن يوسف؛ إن كان ليرقى المنبر فيذكر إحسانه إلى أهل العراق، وصفحه عنهم، وإساءتهم إليه = حتى أقول في نفسي إني لأحسبه صادقا، وإني لأظنهم ظالمين له" (٣١).

فانظر ماذا يصنع فصيح الكلام في السامعين، ولهذا المعنى وما يشبهه استحب أهل العلم أن يكون الخطيب والواعظ والمتحدث بليغا فصيحا؛ ليحصل بكلامه أثر في السامعين، وفيه يقول الإمام النووي: "يستحب كون الخطبة فصيحة بليغة مرتبة مبيّنة من غير تمطيط ولا تعجير، ولا تكون ألفاظا مبتذلة ملفقة؛ فإنها لا تقع في النفوس موقعا كاملا، ولا تكون وحشية؛ لأنه لا يحصل مقصودها بل يختار ألفاظا جَزَلَةً مَفْهَمَةً" (٣٢).

وقد بلغ من عناية الصحابة ومن بعدهم بالعربية أن يضربوا أولادهم على اللحن. فعن عمر بن زيد قال: كتب عمر ﷺ إلى أبي موسى ﷺ: "أما بعد، فتفقهوا في السنة وتفقهوا في العربية" (٣٣).

وعن نافع مولى ابن عمر رضي الله عنهما قال: "كان عبد الله بن عمر يضرب ولده على اللحن" (٣٤). والأخبار والآثار في هذا الباب أكثر من أن يتسع لها هذا المقام، وهي متفقة على ضرورة تعلم العربية،

(٢٩) التمهيد (١٧١/٥)، وذكره مختصرا في "أدب المجالسة وحمد اللسان" (ص ٤٦)، وذهب إلى المعنى الثاني الإمام النووي في "شرح مسلم" (١٥٩/٦)، وأبو العباس القرطبي في "المفهم لما أشكل من كتاب مسلم" (٥٠٥/٢)، وهو مذهب طائفة من الشراح وأهل العلم.

(٣٠) أدب المجالسة وحمد اللسان (ص ٤٦) لابن عبد البر.

(٣١) البيان والتبيين (٢/٢٦٨).

(٣٢) المجموع شرح المذهب (٤/٤٠٠).

(٣٣) أخرجه ابن أبي شيبة في "المصنف" (١٦٥/١٣)، أثر رقم (٢٦١٦٤)، ومن طريقه ابن عبد البر في "جامع بيان العلم وفضله" (١١٣٢/٢)، أثر رقم (٢٢٢٨)، وصححه أبو الأشبال الزهيري في تعليقه على الجامع.

(٣٤) أخرجه ابن أبي شيبة في "المصنف" (١٦٥/١٣)، أثر رقم (٢٦١٦٣)، والبخاري في "الأدب المفرد" (ص ٤٠١)، أثر رقم (٨٨٠)، وإسناده صحيح.

ولزوم الفصاحة والبيان، وأن المرء مهما تسلح بهذا السلاح في المحادثة والمخاطبة كان لكلامه وقع، وليبيانه أثر، والعكس بالعكس.

المبحث الخامس: الحلم والرفق في الخطاب :

إن القلوب النافرة، والنفوس النائرة ما تُولِّفَت بمثل عذب المنطق وحلو الكلام، وقد أرسل الله تعالى موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون وقال لهما: ﴿أَذْهَبَا إِلَيَّ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى، فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٣-٤٤].

هل عرفت الدنيا أظعى وأعتى من فرعون الذي قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]، وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمُ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، ومع ذلك أمر الله موسى وهارون عليهما السلام أن يترفقا ويتلطفا به لعله يتذكر أو يخشى. وقد قال رجل للرشيد (٣٥): يا أمير المؤمنين، إنني أريد أن أعطك بعظة فيها بعض الغلظة فاحتملها، قال: كلا، إن الله أمر من هو خير منك بالإلانة القول لمن هو شر مني، قال لنبيه موسى ﷺ إذ أرسله إلى فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤].

وقد امتنَّ الله تعالى على نبيه ﷺ بالحلم والرفق واللين، فقال: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، فامتثل ﷺ الرفق واللين قولاً وعملاً، وأمر به أصحابه ﷺ وأرشدهم إليه.

عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: (يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرَّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرَّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ، وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ) (٣٦).

وعنها رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: (إِنَّ الرَّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ) (٣٧).

وما من شيءٍ أصدَّ للناس عن المتكلم من شدته وقسوته، فهي حجاب كثيف يحول بينهم وبينه، وربما تعلل بعضهم -في شدته وقسوته- بالحماية للشرع، والغضب للدين، ولقد كان رسول الله ﷺ أقوم الناس بالحق وللحق، وأغضبهم لله، وأغضبهم إذا انتهكت حرماته، ومع ذلك كان هيناً لنا، سمحاً رفيقاً؛ ففتحت له القلوب، وانقادت له النفوس.

وضرب لنا ﷺ أروع الأمثلة في الرفق واللين مع المخاطب، عدواً كان أو صديقاً، مسلماً أو كافراً. فعن أنس بن مالك ﷺ قال: "كُنْتُ أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ، فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ فَجَدَّبَهُ جَدْبَةً شَدِيدَةً، حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عَاتِقِ النَّبِيِّ ﷺ قَدْ أَثَرَتْ بِهِ حَاشِيَةُ الرِّدَاءِ مِنْ شِدَّةِ جَدْبَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: مَرُّ لِي مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي عِنْدَكَ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ فَضَحِكَ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ" (٣٨).

(٣٥) كما في "العقد الفريد" (١١٠/٣) لابن عبد ربه.

(٣٦) أخرجه مسلم كتاب: البر والصلة والآداب، باب: فضل الرفق (٤/٢٠٠٣)، حديث رقم (٢٥٩٣).

(٣٧) أخرجه مسلم كتاب: البر والصلة والآداب، باب: فضل الرفق (٤/٢٠٠٤)، حديث رقم (٢٥٩٤).

(٣٨) أخرجه البخاري كتاب: فرض الخمس، باب: ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه (٤/٩٤)، حديث رقم (٣١٤٩) واللفظ له، ومسلم كتاب: الزكاة، باب: إعطاء من سأل بفحش وغلظة (٢/٧٣٠)، حديث رقم (١٠٥٧).

قال أبو العباس القرطبي: "وهذا الحديث يدل على ما وصف الله به نبيه ﷺ أنه على خلق عظيم، وأنه رءوف رحيم؛ فإن هذا الجفاء العظيم الذي صدر من هذا الأعرابي لا يصبر عليه، ولا يحلم عنه مع القدرة عليه إلا مثله، ثم ضحكه ﷺ عند هذه الجبذة (٣٩) الشديدة التي انشق البرد لها، وتأثر عنقه بسببها، حتى انفلت عن وجهته، ورجع إلى نحر الأعرابي = دليل على أن الذي تم له من مقام الصبر والحلم ما تم لأحد" (٤٠).

وتأمل هذا الموقف العظيم منه ﷺ مع رجل من أصحابه، وهو معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه، قال: بَيْنَا أَنَا أُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ، فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ، فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ، فَقُلْتُ: وَأَنْكَلُ أُمِّيَاءَهُ، مَا شَأْنَكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ؟ فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَادِهِمْ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمِّتُونَنِي لَكِنِّي سَكَتُ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَبَابِي هُوَ وَأُمِّي مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ، فَوَاللَّهِ مَا كَهَرَنِي وَلَا ضَرَبَنِي وَلَا شَتَمَنِي، قَالَ: (إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ) (٤١).

قال النووي: "فيه بيان ما كان عليه رسول الله ﷺ من عظيم الخلق الذي شهد الله تعالى له به، ورفقه بالجاهل، ورافته بأتمته وشفقته عليهم، وفيه التخلق بخلقه ﷺ في الرفق بالجاهل، وحسن تعليمه، واللفظ به، وتقريب الصواب إلى فهمه" (٤٢).

فيمثل هذه الأخلاق العظيمة اجتمعت عليه القلوب ﷺ، والتفت حوله القبائل، وانقادت له العرب والعجم، وبمثلها كذلك تحفظ المودة، وتدفع العداوة، ويمنع نزغ الشيطان.

ومن جميل ما قاله الإمام الشاطبي في "الاعتصام" (٤٣): "قال الغزالي في بعض كتبه (٤٤): أكثر الجهالات إنما رسخت في قلوب العوام بتعصب جماعة من جهال أهل الحق، أظهروا الحق في معرض التحدي والإدلاء، ونظروا إلى ضعفاء الخصوم بعين التحقير والازدراء، فثارت من بواطنهم دواعي المعاندة والمخالفة، ورسخت في قلوبهم الاعتقادات الباطلة، وتعذر على العلماء المتطهين محوها مع ظهور فسادها، حتى انتهى التعصب بطائفة إلى أن اعتقدوا أن الحروف التي نطقوا بها في الحال بعد السكوت عنها طول العمر قديمة، ولولا استيلاء الشيطان بواسطة العناد والتعصب للأهواء، لما وجد مثل هذا الاعتقاد مستقرا في قلب مجنون فضلا عن قلب عاقل. هذا ما قال، وهو الحق الذي تشهد له العوائد الجارية، فالواجب تسكين الثائرة ما قدر على ذلك، والله أعلم".

وأولى الناس بلين الخطاب والرفق والسماحة من كان له عليه حق؛ كالوالدين والعلماء، أو من له جاه ورياسة ونحو ذلك، فالرفق واللين مع أمثال هؤلاء أدعى لقبولهم وامثالهم، وهذا هدي النبي ﷺ كما تقدمت

(٣٩) الجذب والجبذ بمعنى واحد، وقد جاءت الروايات بهذا وذاك.

(٤٠) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (١٠١/٣-١٠٢).

(٤١) أخرجه مسلم كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: تحريم الكلام في الصلاة، ونسخ ما كان من إباحته (٣٨١/١)، حديث رقم (٥٣٧).

(٤٢) شرح النووي على مسلم (٢٠/٥).

(٤٣) (١٦٧/٣).

(٤٤) ولم أفق عليه في كتب الإمام الغزالي.

الإشارة إليه.

المبحث السادس: البعد عن الجدل والمراء والخصومة:

يكثر في أحاديث الناس ومجالسهم ومنتدياتهم الجدل والمراء والخصومة، وكثير منه يكون بالباطل لا بالحق، إما بقصد العناد أو التشفي أو الاستعلاء والاستطالة وتحقير المخالف ونحو ذلك مما يورث العداوة والبغضاء والحقد في النفوس.

وأنقل للفائدة ابتداء كلام الإمام الغزالي في التفريق بين هذه الألفاظ، قال: "المراء: طعن في كلام الغير بإظهار خلل فيه من غير أن يرتبط به غرض سوى تحقير الغير، وإظهار مزية الكياسة، والجدال: عبارة عن أمر يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها، والخصومة: لجاح في الكلام لئستوفى به مال أو حق مقصود، وذلك تارة يكون ابتداء وتارة يكون اعتراضاً، والمراء لا يكون إلا باعتراض على كلام سبق" (٤٥).

وقد عظم تحذير النبي ﷺ من هذه الآفات المهلكة، ورغب في تركها ومجانبتها. فعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان مُحِقًا) (٤٦).

ومن شؤم الجدل والخلاف أنه سبب لرفع الخير وحرمانه، ومن شواهد ما جاء عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ لِيُخْبِرَنَا بَلِيَّةَ الْقَدْرِ، فَتَلَحَّى رَجُلَانِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَقَالَ: (خَرَجْتُ لَأُخْبِرَكُمْ بَلِيَّةَ الْقَدْرِ، فَتَلَحَّى (٤٧) فَلَانٌ وَقَلَانٌ فَرُفِعَتْ، وَعَسَى أَنْ يَكُونَ خَيْرًا لَكُمْ، فَالْتَمِسُوهَا فِي التَّاسِعَةِ وَالسَّابِعَةِ وَالْخَامِسَةِ) (٤٨).

ومما يتصل بهذا ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لَمَّا حَضَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَفِي الْبَيْتِ رَجَالٌ فِيهِمْ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (هَلُمُّوا كِتَابًا لَكُمْ كِتَابًا لَا تَضِلُّونَ بَعْدَهُ)، فَقَالَ عُمَرُ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ غَلَبَ عَلَيْهِ الْوَجَعُ، وَعِنْدَكُمْ الْقُرْآنُ حَسْبُنَا كِتَابُ اللَّهِ، فَاخْتَلَفَ أَهْلُ الْبَيْتِ فَاخْتَصَمُوا، فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: قَرَّبُوا يَكْتُبُ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كِتَابًا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ مَا قَالَ عُمَرُ، فَلَمَّا أَكْثَرُوا اللَّغْوَ وَالْاِخْتِلَافَ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (قَوْمُوا)، قَالَ عُبَيْدُ اللَّهِ: فَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ، يَقُولُ: إِنَّ الرِّزِيَّةَ كُلَّ الرِّزِيَّةِ مَا حَالَ بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَبَيْنَ أَنْ يَكْتُبَ لَهُمْ ذَلِكَ الْكِتَابَ مِنْ اِخْتِلَافِهِمْ وَلَغَطِهِمْ (٤٩).

فانظر شؤم الخصومة والجدل والخلاف كيف حُرِمَ الصحابة بها معرفة ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر، وكيف حرموا كذلك وصية النبي ﷺ.

والجدال ليس مذمومًا بإطلاق، فمنه ما يكون محمودًا، وهذا يختلف باختلاف نية المجادل، قال الإمام

(٤٥) إحياء علوم الدين (٤٢٨/٥).

(٤٦) أخرجه أبو داود كتاب: الأدب، باب: في حسن الخلق (٢٥٣ / ٤)، حديث رقم (٤٨٠٠) ، وحسنه الألباني والأرنؤوط.

(٤٧) من الملاحاة، وهي المقالة والخصومة. انظر: النهاية (٢٤٣/٤) لابن الأثير.

(٤٨) أخرجه البخاري كتاب: فضل ليلة القدر، باب: رفع معرفة ليلة القدر لتلاحي الناس (٤٧ / ٣)، حديث رقم (٢٠٢٣).

(٤٩) أخرجه البخاري كتاب: العلم، باب: كتابة العلم (٣٤/١)، حديث رقم (١١٤)، ومسلم كتاب: الوصية، باب: ترك الوصية لمن ليس له شيء يوصي فيه (١٢٥٩ / ٣)، حديث رقم (١٦٣٧) واللفظ له.

النووي: "واعلم أن الجدل قد يكون بحق، وقد يكون بباطل، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، فإن كان الجدل للوقوف على الحق وتقريره كان محموداً، وإن كان في مدافعة الحق، أو كان جدالاً بغير علم كان مذموماً، وعلى هذا التفصيل تنزيل النصوص الواردة في إباحته وذمه" (٥٠).

المبحث السابع: الإعراض عن اللغو وما لا فائدة فيه:

لو أجلنا النظر في مجالس الناس وأحاديثهم لرأينا كثيرا منها إن سلم من الحرام لم يسلم من اللغو وما لا فائدة منه ولا طائل تحته، فأحاديثهم تدور حول أخبار الفن والرياضة والأفلام والمسلسلات والأخبار وغير ذلك، والله سبحانه وصف أهل الإيمان بقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٣]، وقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥]، وهذه الأوقات نحن مسؤولون عنها يوم القيامة، كما جاء في حديث أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عَمَلِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَا فَعَلَ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ) (٥١).

وقد كثرت الأحاديث عن النبي ﷺ في التحذير من إضاعة الأوقات في التثرتة والقبيل والقال مما لا يعود على صاحبه بعائدة ولا نفع في الدنيا والآخرة.

فعن المغيرة بن شعبه رضي الله عنه، قال: سمعت النبي ﷺ صلى الله عليه وسلم يقول: "إِنَّ اللَّهَ كَرِهَ لَكُمْ ثَلَاثًا: قِيلَ وَقَالَ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ" (٥٢).

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: (إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحْسَنُكُمْ أَخْلَاقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الثَّرَثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ وَالْمُنْفِيهِقُونَ)، قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ عَلِمْنَا الثَّرَثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ فَمَا الْمُنْفِيهِقُونَ؟ قال: (الْمُتَكَبِّرُونَ) (٥٣).

قال الإمام الترمذي: والثرتار: هو الكثير الكلام.

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: كُنْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْ إِنَّا لَمَأْخُودُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ؟ قَالَ:

(٥٠) الأذكار (ص ٥٧٩).

(٥١) أخرجه الترمذي كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع، باب: في القيامة (٤/٦١٢)، حديث رقم (٢٤١٧)، وقال: "حديث حسن صحيح".

(٥٢) أخرجه البخاري كتاب: الزكاة، باب قول الله تعالى: {لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا} [البقرة: ٢٧٣] وكم الغنى (٢/١٢٤)، حديث رقم (١٤٧٧)، ومسلم كتاب: الأضيء، باب: باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة، والنهي عن منع وهات، وهو الامتناع من أداء حق لزمه، أو طلب ما لا يستحقه (٣/١٣٤١)، حديث رقم (٥٩٣).

(٥٣) أخرجه الترمذي كتاب: البر والصلة، باب: ما جاء في معالي الأخلاص (٤/٣٧٠)، حديث رقم (٢٠١٨)، وقال: "هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه". والحديث أعله الدارقطني في العلال (١٣/٣٢٩) بالإرسال. وله شواهد من حديث أبي هريرة وغيره يحسن مجموعها إن شاء الله. انظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢/٤١٨) وما بعدها) للشيخ الألباني، والله أعلم.

(تَكَتَكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يُكِبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ، أَوْ قَالَ: عَلَى مَنَاخِرِهِمْ، إِلَّا حَصَانِدُ السَّنِيهِمْ) (٥٤).

والأحاديث في الباب كثيرة ليس الغرض استيفاءها هنا، وكذا وردت آثاراً عن الصحابة والتابعين في هذا الباب و نسوق منها أثراً عظيماً للتابعي الجليل عطاء بن أبي رباح يقول فيه: "إن من كان قبلكم كان يكره فضول الكلام ما عدا كتاب الله تعالى أن تقرأه، أو أمراً بمعروف أو نهياً عن منكر، وأن تتطرق بحاجتك في معيشتك التي لا بد لك منها، أنتكرون أن عليكم حافظين، كراما كاتبين وأن ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧-١٨]، أما يستحيي أحدكم لو نشر صحيفته التي أملى صدر نهاره وأكثر ما فيها ليس من أمر دينه ولا دنياه" (٥٥).

وأعظم ما يعين على الصمت وعدم الخوض في اللغو وما لا ينفع = أن يعلم العبد أنه سيقف بين يدي الله، ويسئل عن الصغير والكبير، والفتيل والنقير والقطمير، فليعدَّ للسؤال جواباً. ﴿وَوَضَعَ الْكِتَابَ فَنَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، فأمر اللسان شديد، وخطره عظيم (٥٦).

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ، مَا يَنْبَغِي فِيهَا، يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ أْبَعَدَ مِمَّا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ) (٥٧).

ومما ينبغي على المرء أن يروِّض ويجاهد فيه نفسه: كثرة الذكر، وتلاوة القرآن، والاشتغال بالطاعات، فمن اشتغل بذلك نور الله قلبه، وهدهد وكفاه وأغناه عما سواه مما يرتع فيه الناس من الباطل واللغو، وأكثر المبتلون بألسنتهم إنما أتوا ودخل عليهم الشيطان من هذا الباب، فشغلهم بالقليل والقال ومجالس اللهو واللعب، وصرفهم عن الذكر والقرآن، والنفوس إن لم تشغل بالطاعة شغلت بالمعصية، ومن ذاق حلوة الذكر وتغرغر قلبه بآيات القرآن عظم عليه الاشتغال بسواها، والموفق من وفقه الله تعالى.

قال الإمام الشافعي: "صحبت الصوفية فما انتفعت منهم إلا بكلمتين. سمعتهم يقولون: الوقت سيف، فإن قطعته وإلا قطعك، ونفسك إن لم تشغلها بالحق وإلا شغلتك بالباطل" (٥٨).

ولا بأس أن يتخلل المجلس والحديث ذكر الدنيا وما يتصل بها، لكن لا يكون هذا هو الغالب على الحديث،

(٥٤) أخرجه الترمذي كتاب: الإيمان، باب: ما جاء في حرمة الصلاة (١٢/٥)، حديث رقم (٢٦١٦)، والنسائي في "الكبرى" كتاب: التفسير، سورة السجدة (٢١٤/١٠)، حديث رقم (١١٣٣٠)، وابن ماجه كتاب: الفتن، باب: كف اللسان في الفتنة (٢/ ١٣١٤)، حديث رقم (٣٩٧٣). قال الترمذي: حديث حسن صحيح، وطرقه لا تخلو من ضعف، لكنه يجبر بمجموعها إن شاء الله. انظر للفائدة كلام الحافظ ابن رجب عليه في "جامع العلوم والحكم" (ص٥٦-٥٧).

(٥٥) أخرجه ابن أبي شيبة في "المصنف" (٤٣٨/١٩)، حديث رقم (٣٦٦١٨).

(٥٦) انظر للفائدة: إحياء علوم الدين (٤١٠/٥).

(٥٧) أخرجه البخاري كتاب: الرقاق، باب: حفظ اللسان (١٠٠/٨)، حديث رقم (٦٤٧٧)، ومسلم كتاب: الزهد والرقاق، باب: التكلم بالكلمة يهوي بها في النار (٤/ ٢٢٩٠)، حديث رقم (٢٩٨٨) واللفظ له.

(٥٨) مدارج السالكين (٥٤٦/٣)، وانظر: الداء والدواء (ص٣٥٨).

فقد كان الصحابة رضي الله عنهم في مجالسهم يأخذون في أمر الجاهلية وهم أتقى الناس لله سبحانه، فعن سماك بن حرب قال: قُلْتُ لَجَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ: أَكُنْتُ تَجَالِسُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم؟ قَالَ: نَعَمْ كَثِيرًا، كَانَ لَا يَقُومُ مِنْ مُصَلَّاهُ الَّذِي يُصَلِّي فِيهِ الصُّبْحَ أَوْ الْغَدَاةَ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ، فَإِذَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ قَامَ، وَكَانُوا يَتَحَدَّثُونَ فَيَأْخُذُونَ فِي أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ فَيَضْحَكُونَ وَيَبْسِمُونَ (٥٩).

قال الإمام النووي في "شرح على مسلم" (٦٠): "فيه جواز الحديث بأخبار الجاهلية وغيرها من الأمم وجواز الضحك".

وما أحسن ما قاله الإمام النووي في "الأذكار" (٦١)، وأختم به، قال: "اعلم أنه لكل مكلف أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام إلا كلاما تظهر المصلحة فيه، ومتى استوى الكلام وتركه في المصلحة، فالسنة الإمساك عنه؛ لأنه قد ينجر الكلام المباح إلى حرام أو مكروه، بل هذا كثير أو غالب في العادة، والسلامة لا يعدها شيء. وروينا في "صحيح البخاري ومسلم" عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ) (٦٢).

قلت: فهذا الحديث المتفق على صحته نص صريح في أنه لا ينبغي أن يتكلم إلا إذا كان الكلام خيرا، وهو الذي ظهرت له مصلحته، ومتى شك في ظهور المصلحة فلا يتكلم".

المبحث الثامن: عدم رفع الصوت في الخطاب:

من العادات المستقبحة في أحاديث الناس رفع الصوت من غير حاجة، فهو أمانة طيش وتهور وقلة أدب، وفي ذمه يقول سبحانه: ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩].

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: "لو كان رفع الصوت هو خيرا ما جعله للحمير" (٦٣). وقال ابن كثير: "أي: لا تبالغ في الكلام، ولا ترفع صوتك فيما لا فائدة فيه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾. قال مجاهد وغير واحد: إن أقبح الأصوات لصوت الحمير، أي: غاية من رفع صوته أنه يشبه بالحمير في علوه ورفعه، ومع هذا هو بغيض إلى الله تعالى، وهذا التشبيه في هذا بالحمير يقتضي تحريمه وذمه غاية الذم" (٦٤). وأكثر ما يكون هذا مستقبحا في الأماكن المعظمة المحترمة؛ كالمساجد ومجالس العلم والذكر ونحو ذلك،

(٥٩) أخرجه مسلم كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: فضل الجلوس في مصلاه بعد الصبح، وفضل المساجد (١/٤٦٣)، حديث رقم (٦٧٠).

(٦٠) (٧٩/١٥).

(٦١) (ص ٥٣٥).

(٦٢) أخرجه البخاري كتاب: الأدب، باب: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره (١١/٨)، حديث رقم (٦٠١٨)، ومسلم كتاب: الإيمان، باب: الحث على إكرام الجار والضيف، ولزوم الصمت إلا عن الخير وكون ذلك

كله من الإيمان (٦٨/١)، حديث رقم (٤٧).

(٦٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٦٥/١٨).

(٦٤) تفسير القرآن العظيم (٣٣٩/٦).

فهذه ينبغي أن تُغشى بالسكينة والجلال، والأدب والوقار، ولا يليق فيها التصايح والصخب. وقد بَوَّب البخاري في صحيحه "باب رفع الصوت في المساجد"، وأخرج تحته من طريق السائب بن يزيد قال: كنت قائماً في المسجد فحصبني رجل، فنظرت فإذا عمر بن الخطاب، فقال: اذهب فأنتي بهذين، فجننت بهما، قال: من أنتما - أو من أين أنتما؟ - قال: من أهل الطائف، قال: "لو كنتمنا من أهل البلد لأوجعتكما، ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله ﷺ" (٦٥). ففي هذا الأثر النهي عن رفع الصوت في المسجد، سيما إن تعلق بنفع دينوي، وبعض أهل العلم كمالك رحمه الله كرهه مطلقاً، ولم يفرق بين الغرض الديني والنفع الدنيوي (٦٦). وكذلك الحال مع أهل العلم والفضل، ومن لهم حق، وقد جاء في وصف عروة بن مسعود ﷺ - لما جاء رسولا لقريش في صلح الحديبية - لأصحاب النبي ﷺ: "وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحذون إليه النظر تعظيماً له.." (٦٧).

وعن النعمان بن بشير ﷺ قال: جاء أبو بكر يستأذن على النبي ﷺ، فسمع عائشة وهي رافعة صوتها على رسول الله ﷺ، فأذن له فدخل، فقال: يا ابنة أم رومان، وتناولها، أترفعين صوتك على رسول الله ﷺ؟.. الحديث (٦٨).

وعن عاصم بن أبي النجود قال: دخلت على عمر بن عبد العزيز وعنده رجل، فتكلم الرجل فرفع صوته، فقال له عمر: "مه، فإنما يكفي الرجل من الكلام أن يُسمع جليسه" (٦٩).

ورفع الصوت إنما يلجأ إليه الضعيف الذي لا يملك حجة ولا بيعة، فيستعيز عن نقص حجته بعلو صوته، والسكينة والهدوء والوقار حلية العاقل القوي المتثبت.

وقد يكون باعث رفع الصوت الكبر والتعالي والغرور، وهذا والعياذ بالله داء دويٌّ.

وقد يكون باعثه الجفاء وضعف التربية، فهذا يؤدّب صاحبه ويعلم برفق، ثم هو ينبغي أن يجاهد نفسه ويحملها على هذا الأدب.

وبالجملة فهذا الأدب من الآداب العظيمة التي تغافل الناس عنها، وفشا فيهم نقيضها، فينبغي أن يُحرص عليه ويُذاع ويُنشر، والله الهادي والموفق.

المبحث التاسع: حسن الإصغاء للمتكلم :

أكثر الناس يجيدون الحديث أكثر مما يجيدون الاستماع، فترى الرجل يتكلم ساعة ولا يحتمل سماع أخيه دقيقة. والإقبال على المتحدث، ورعاية حديثه بالإنصات وحسن الاستماع من أهم آداب التخاطب، وليس من

(٦٥) أخرجه البخاري كتاب: الصلاة (١/١٠١)، أثر رقم (٤٧٠).

(٦٦) انظر: فتح الباري (١/٥٦٠).

(٦٧) أخرجه البخاري كتاب: الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط (٣/١٩٣)، حديث رقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢) من طريق عروة بن الزبير عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم رضي الله عنهما.

(٦٨) أخرجه أحمد (١٨٣٩٤)، واللفظ له، أبو داود كتاب: الأدب، باب: ما جاء في المزاح (٤/٣٠٠)، حديث رقم (٤٩٩٩)، والنسائي في الكبرى كتاب: عشرة النساء، باب: رفع المرأة صوتها على زوجها (٨/٢٥٦)، حديث رقم (٩١١٠)، وإسناده صحيح.

(٦٩) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (١/٤١٢).

الأدب ولا المروءة أن تتشاغل عن حديثك، ولا تبالي بحديثه، إنك إذا لمن الجاهلين.

والناس في هجر ذلك الأدب لهم طرائق مختلفة:

فمنهم من يترك محدثه ويشغل عنه بالهاتف (الجوال)، ويقلب النظر في شاشته ورسائله، كأنه لا يجالس أحداً، وبعضهم يفعل هذا في مجالس العلم، ومع أبيه وأمه وأهله، وهذا من أقبح ما يفعله الناس اليوم في المجالس.

ومنهم يبادر الحديث، فما أن تذكر كلمة أو حديثاً إلا وبادر بإظهار اطلاعه عليه ومعرفته به جهلاً وتعالماً وغروراً.

ومنهم من يقطع عليك حديثك كلما عنت له فكره، أو انقح في ذهنه شيء مما يتصل بحديثك، فلا يكاد المتحدث يتم جملة حتى يقفز هذا الأحمق لقطع حديثه.

ومنهم من يشتغل عن محدثه بالنظر يمنة ويسرة، أو العبث بشيء في يده، ونحو ذلك. والنفوس مجبولة على الأثرة في هذا وغيره، فمن ابتلي بشيء من هذا تعين عليه أخذ نفسه بالمجاهدة، وتعويداً للأدب والإنصات.

وقد كان ﷺ أحسن الناس حديثاً واستماعاً، ولا يغيب عن ذي علم في هذا المقام حوارُه مع عتبة بن ربيعة، ولست مقتصرًا منه على موضع الشاهد، وإنما أسوقه تاماً لتظهر لك العظمة النبوية، والأدب المحمدي في أبهى صورته، وكيف احتمل ﷺ ما سمع من عتبة وقابله أحسن مقابلة.

أسند ابن إسحاق في سيرته من طريق محمد بن كعب القرظي قال: قال حدثت أن عتبة ابن ربيعة كان سيداً حليماً، قال ذات يوم -وهو جالس في نادي قريش ورسول الله ﷺ جالس وحده في المسجد-: يا معشر قريش، ألا أقوم إلى هذا فأكلمه أمورا لعله أن يقبل بعضها فنعطيه أبها شاء ويكف عنا -وذلك حين أسلم حمزة بن عبد المطلب ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون-؟ فقالوا بلى يا أبا الوليد فقم فكلمه، فقام عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من السطة (٧٠) في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم؛ فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت من مضي من آبائهم، فاستمع مني أعرض عليك أمورا تنتظر فيها لعلك أن تقبل منها بعضها، فقال رسول الله ﷺ: قل يا أبا الوليد أسمع، فقال: يا ابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت من هذا القول مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت إنما تريد شرفاً شرفناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك، وإن كنت تريد ملكا ملكناك، وإن كان هذا يأتيتك ربياً (٧١) تراه ولا تستطيع أن ترده عن نفسك طلبنا لك الطب وبدلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه، ولعل هذا الذي تأتي به شيعر جاش به صدرك، فإنكم لعمري يا بني عبد المطلب تقدرون منه على ما لا يقدر عليه أحد، حتى إذا فرغ

(٧٠) السطة: شرف الحسب، يقال: وسط الرجل قومه يسيطهم وساطة وسيطة، وفلان وسيط في قومه إذا كان أوسطهم نسباً، وأرفعهم مجداً. انظر: لسان العرب (٤٣٠/٧).

(٧١) الرئي: التابع من الجن، أو الذي يعتاد بعض الناس من الجن، يقال: مع فلان رئي، وله رئي من الجن. انظر:

لسان العرب (٢٩٧/١٤)، وتاج العروس (١٠٦/٣٨).

عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه قال رسول الله ﷺ: (أفرغت يا أبا الوليد؟) قال: نعم، قال: (فاستمع مني)، قال: أفعل، فقال رسول الله ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حم * تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ١-٣]، فمضى رسول الله ﷺ يقرأها عليه، فلما سمعها عتبة أنصت له وألقى بيده خلف ظهره معتمدا عليها يستمع منه حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة، فسجد فيها، ثم قال: (قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك)، فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ فقال: ورائي أني والله قد سمعت قولاً ما سمعت لمثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا الكهانة، يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه واعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، فقال هذا رأي لكم، فاصنعوا ما بدا لكم (٧٢).

الله ما أكمل خلقه ﷺ، وما أطيب شمائله، يستقبله عتبة بهذا الهراء، وهذا السخف، وهو مصغ مقبل عليه بكليته ﷺ، حتى إذا أتم كلامه قال له: أفرغت يا أبا الوليد؟ فكناه، ولم يعجل بالحديث حتى استيقن أنه أتم كلامه فبادره بالآيات، ثم سجد وقال له: (قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك)، فوكله إلى نفسه واختياره، ولم يُغلظ عليه، وكناه أولاً وأخراً، فانظر أثر ذلك في عتبة حين رجع إلى قومه، وحدثهم بما علمت.

وقد كان ﷺ يربي أصحابه على هذا الخلق النبيل، فعن أبي هريرة ؓ قال: بَيْنَمَا النَّبِيُّ ﷺ فِي مَجْلِسٍ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ جَاءَهُ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ فَمَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُحَدِّثُ، فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ: سَمِعَ مَا قَالَ فَكَّرَهُ مَا قَالَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ لَمْ يَسْمَعْ، حَتَّى إِذَا قَضَى حَدِيثَهُ قَالَ: (أَيْنَ أَرَاهُ السَّاعَةَ؟) قَالَ: هَا أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: (فَإِذَا ضَيَّعَتِ الْأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ)، قَالَ: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا؟ قَالَ: (إِذَا وُسِدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ) (٧٣). فهذا الحديث فيه التنبيه على أدب العالم والمتعلم؛ أما العالم: فلما تضمنه من ترك زجر السائل، بل أدبه بالإعراض عنه أولاً حتى استوفى ما كان فيه ثم رجع إلى جوابه، فرفق به لأنه من الأعراب وهم جفاة، وفيه العناية بجواب سؤال السائل ولو لم يكن السؤال متعينا ولا الجواب، وأما المتعلم: فلما تضمنه من أدب السائل أن لا يسأل العالم وهو مشغول بغيره لأن حق الأول مقدم (٧٤).

المبحث العاشر: التواضع ونبذ الكبر:

التواضع خلق عظيم جليل، من أخلاق النبيين والمرسلين، وقد كان ﷺ أعظم الناس تواضعا، وحث أمته على هذا الخلق، فقال ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَبْغِي أَحَدٌ عَلَى

(٧٢) سيرة ابن إسحاق (ص ٢٠٦-٢٠٨)، وقال الشيخ الألباني في تخريج "فقه السيرة" (ص ١١٦) للشيخ محمد الغزالي: "هذه القصة أخرجها ابن إسحاق في "المغازي" (١/١٨٥) من سيرة ابن هشام بسند حسن عن محمد بن كعب القرظي مرسلًا، ووصله عبد بن حميد، وأبو يعلى، والبيهقي من طريق أخرى من حديث جابر ؓ... وسنده حسن إن شاء الله".

(٧٣) أخرجه البخاري كتاب: العلم، باب: من سئل علما وهو مشغول في حديثه، فأتم الحديث ثم أجاب السائل (١/٢١١)، حديث رقم (٥٩).

(٧٤) فتح الباري (١/٤٢١)، وانظر: التوضيح لشرح الجامع الصحيح (٣/٢٥٦) لابن الملقن.

أحد (٧٥).

ومن أشد أمراض النفوس وأوردها للمهالك الكبر والتعالي على الخلق، ويظهر هذا في حديث كثير من الناس ومحاوراتهم مع غيرهم، تراه في حركة لسانه، وقسمات وجهه، وتقطيب جبينه، وهيئة جلوسه، وغير ذلك مما يتلبس به هؤلاء المرضى الهالكون.

ومن تأمل هديه ﷺ مع أصحابه رأى عجباً، تأتبه المرأة في عقلها شيء، فنقول: يا رسول الله، إن لي إليك حاجة، فيقول: (يَا أُمَّ فُلَانٍ انظري أي السكك شئت، حتى أقضي لك حاجتك)، ويخلو معها في بعض الطرق حتى يقضي حاجتها (٧٦).

ويأتية الرجل الغريب لكي يتعلم دينه فيقبل عليه ولا ينشغل عنه صلى الله عليه وسلم، كما في حديث أبي رفاعة تميم بن أسيد ؓ قال: "انتهيت إلى النبي ﷺ وهو يخطب، قال: فقلت: يا رسول الله رجل غريب جاء يسأل عن دينه، لا يدري ما دينه، قال: فأقبل علي رسول الله ﷺ وترك خطبته حتى انتهى إلي، فأني بكرسي حسبت قوائمه حديداً، قال: ففعد عليه رسول الله ﷺ، وجعل يعلمني مما علمه الله، ثم أتى خطبته فأتم آخرها" (٧٧). فهذا منه ﷺ غاية التلطف والتواضع والرفق والسماحة؛ يقطع الخطبة، ويقبل على السائل ويعلمه والناس ينتظرون، وهو مع ذلك رجل غريب. بأبي هو وأمي ﷺ.

وما زال العقلاء وأهل المروءات يتحفظون في مجالسهم وأحاديثهم عن هذه الأخلاق الرديئة الدنيئة، ويتواصون بالتواضع وخفض الجناح.

قال ابن المقفع: "تحفظ في مجلسك وكلامك من التطاول على الأصحاب، وطب نفساً عن كثير مما يعرض لك فيه صواب القول والرأي، مداراة؛ لتلا يظن أصحابك أن دأبك التطاول عليهم" (٧٨). وقال ابن سعدي: "واحذر غاية الحذر من احتقار من تجالسه من جميع الطبقات، وازدرائه، أو الاستهزاء به قولاً، أو فعلاً، أو إشارة، أو تصريحاً، أو تعريضاً؛ فإن فيه ثلاثة محاذير: أحدها: التحريم والإثم على فاعله.

الثاني: دلالة على حمق صاحبه، وسفاهة عقله وجهله.

الثالث: أنه باب من أبواب الشر، وضرر على نفسه" (٧٩).

ومن التواضع في الحديث ألا يكثر المرء من الحديث عن نفسه في كل حدث ومناسبة، فهذه خفة ورعونة لا تليق بالعقلاء سيما إذا اقترن بحديثه عن نفسه تحقير غيره وتقصه.

(٧٥) أخرجه مسلم كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار (٤/ ٢١٩٨)، حديث رقم (٢٨٦٥) من حديث عياض بن حمار ؓ.

(٧٦) أخرجه مسلم كتاب: الفضائل، باب قرب النبي عليه السلام من الناس وتبركهم به (٤/ ١٨١٢)، حديث رقم (٢٣٢٦) من حديث أنس ؓ.

(٧٧) أخرجه مسلم كتاب: الجمعة، باب حديث التعليم في الخطبة (٢/ ٥٩٧)، حديث رقم (٨٧٦).

(٧٨) الأدب الصغير والأدب الكبير (ص ١٠١).

(٧٩) الرياض الناضرة (ص ٤١٩)، وهذا النقل والذي قبله مستفادان بواسطة "أخطاء في أدب المحادثة والمجالسة" (ص ٣٤) لمحمد بن إبراهيم الحمد.

ومن التواضع كذلك أن يقبل الحق من كل أحد، حتى لو كان من رجل يراه عامياً أو جاهلاً، فإن (الكبيرُ بَطْرُ الْحَقِّ، وَغَمَطُ النَّاسِ) (٨٠).

الخاتمة :

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، أما بعد، فهذه أهم النتائج التي توصلت إليها بعدما يسر الله من إتمام هذا البحث، وهي:

١- الإخلاص لله تعالى من أجل الآداب التي ينبغي للمتخاطبين التحلي بها، فهو ميزان الأعمال وعليه تدور رحي القبول.

٢- لا يستقيم الخطاب بغير علم وفهم وتثبت، فالعلم ركن الخطاب الأعظم الذي يكون به مؤثراً قوياً مقنعاً.

٣- صدق المرء في حديثه ومجالسه من أعظم أسباب القبول والتوفيق، فالصادق في خطابه نور، ولكلامه أثر.

٤- البيان في المخاطبة والفصاحة من أعظم ما يؤثر في نفوس الناس، ولذلك ينبغي الحرص على تعلم اللغة العربية وأساليب البيان فيها والتزامها في مجالس العلم والحديث والحوار والمناظرة وغير ذلك مما يتصل بحياة الناس.

٥- القلوب النافرة، والنفوس الثائرة ما تُولِّفَت بمثل عذب المنطق وحلو الكلام، وما من شيء أصد للناس عن المتكلم من شدته وقسوته.

٦- الجدل والمراء والخصومة من آفات الحوار والتخاطب بين الناس، ومتى سرت هذه الأدواء إلى الخطاب كان ما يفسده أكثر مما يصلحه.

٧- من آفات أحاديث الناس ومجالسهم إضاعة الأوقات في الثرثرة والقبل والقال مما لا يعود على صاحبه بعائدة ولا نافعة في الدنيا ولا في الآخرة.

٨- من العادات المستقبحة في أحاديث الناس رفع الصوت من غير حاجة، فهو أمانة طيش وتهور وقلة أدب.

٩- الإقبال على المتحدث، ورعاية حديثه بالإنصات وحسن الاستماع من أهم آداب التخاطب، وليس من الأدب ولا المروءة أن تتشاغل عن حديثك ولا تبالي بحديثه.

١٠- من أشد أمراض النفوس وأوردها للمهالك الكبر والتعالي على الخلق، ويظهر هذا في حديث كثير من الناس ومحاوراتهم مع غيرهم.

التوصيات:

يوصي الباحث بضرورة إحياء أدب السنة النبوية الشريفة في التخاطب في بين أفراد المجتمع من خلال المحاضرات والدروات وخطب الجمعة والفيديوهات القصيرة ووسائل التواصل الاجتماعي.

(٨٠) أخرجه مسلم كتاب: الإيمان، باب: تحريم الكبر وبيانه (٩٣/١)، حديث رقم (٩١) من حديث عبد الله بن مسعود

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.
- إحياء علوم الدين: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت ٥٠٥هـ)، دار المنهاج- جدة، ط ٢- ١٤٣٤هـ.
- أخطاء في أدب المحادثة والمجالسة: محمد بن إبراهيم الحمد، دار ابن خزيمة- الرياض، ط ٢- ١٤٢٢هـ.
- أدب المجالسة وحمد اللسان: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر القرطبي (ت ٤٦٣هـ)، تحقيق سمير حليبي، دار الصحابة للتراث- طنطا، ط ١- ١٤٠٩هـ.
- الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان: علاء الدين علي بن بلبان الفارسي (ت ٧٣٩هـ)، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة- بيروت، ط ٢- ١٤١٤هـ.
- الأدب المفرد: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ)، تحقيق علي بن عبد الباسط مزيد، وعلي بن عبد المقصود رضوان، مكتبة الخانجي- مصر، ط ١- ١٤٢٣هـ.
- الأذكار من كلام سيد الأبرار: أبو زكريا محي الدين يحيى بن شرف النووي (ت ٦٧٦هـ)، دار المنهاج- جدة، ط ٤- ١٤٣٣هـ.
- البيان والتبيين: أبو عثمان عمرو بن بحر (الجاحظ) (ت ٢٥٥هـ)، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي- القاهرة، ط ٧- ١٤١٨هـ.
- التحرير والتنوير: محمد الطاهر (ابن عاشور التونسي) (ت ١٣٩٣هـ)، الدار التونسية، ط ١٩٣٤م.
- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر القرطبي (ت ٤٦٣هـ)، تحقيق مصطفى العلوي ومحمد البكري، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية- المغرب، ط ١٣٨٧هـ.
- التوضيح لشرح الجامع الصحيح: سراج الدين أبو حفص عمر بن علي الأنصاري (ابن الملقن) (ت ٨٠٤هـ)، تحقيق دار الفلاح للبحث العلمي بإشراف خالد الرباط وجمعة فتحي، دار النوادر- دمشق، ضمن إصدارات الاوقاف القطرية، ط ١- ١٤٢٩هـ.
- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله وسننه وأيامه: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ)، اعتنى به أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية- الرياض، ط ١٤١٩هـ.
- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع: أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ)، تحقيق محمود الطحان، مكتبة المعارف- الرياض، ط ١٤٠٣هـ.
- الحوار في السيرة النبوية: محمد بن إبراهيم الحمد، دار ابن خزيمة- الرياض، ط ٢- ١٤٣٤هـ.
- الداء والدواء: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (ابن قيم الجوزية) (ت ٧٥١هـ)، تحقيق محمد أجمل الإصلاحي، دار عالم الفوائد- مكة، ط ١- ١٤٢٩هـ.
- الرسالة: أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي (ت ٢٠٤هـ)، شرح وتحقيق أحمد شاكر، مكتبة الحلبي- مصر، ط ١- ١٣٥٨هـ.
- السنن الكبرى: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي (ت ٣٠٣هـ)، حققه حسن عبد المنعم شلبي، مؤسسة الرسالة- بيروت، ط ١- ١٤٢١هـ.

- الشمائل المحمدية: أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (ت ٢٧٩هـ)، تحقيق عبده علي كوشك، مكتبة نظام يعقوبي الخاصة- البحرين، ط ٥- ١٤٣٣هـ.
- العقد الفريد: شهاب الدين أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي (ت ٣٢٨هـ)، دار الكتب العلمية- بيروت، ط ١- ١٤٠٤هـ.
- العلل الواردة في الأحاديث النبوية. المؤلف: أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي بن مسعود بن نعمان بن دينار البغدادي الدارقطني (المتوفى: ٣٨٥هـ)، المجلدات من الأول، إلى الحادي عشر، تحقيق وتخرىج: محفوظ الرحمن زين الله السلفي. الناشر: دار طيبة/ الرياض. الطبعة: الأولى ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م. والمجلدات من الثاني عشر، إلى الخامس عشر، علق عليه: محمد بن صالح بن محمد الدباسي، الناشر: دار ابن الجوزي - الدمام، الطبعة: الأولى، ١٤٢٧ هـ.
- الفقيه و المتفقه، المؤلف: أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، المحقق: أبو عبد الرحمن عادل بن يوسف الغرازي الناشر: دار ابن الجوزي - السعودية، الطبعة: الثانية، ١٤٢١هـ، عدد الأجزاء: ٢.
- الكوكب الوهاج والروض البهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج: محمد الأمين الهرري الشافعي، دار المنهاج- جدة، ط ١- ١٤٣٠هـ.
- المجموع شرح المهذب: أبو زكريا محي الدين يحيى بن شرف النووي (ت ٦٧٦هـ)، تحقيق وتعليق محمد نجيب المطيعي، مكتبة الإرشاد- جدة.
- المسند الصحيح المختصر من السنن بنقل العدل عن العدل عن رسول الله: أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت ٢٦١هـ)، اعتنى به أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية- الرياض، ط- ١٤١٩هـ.
- المصنف: أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة العبسي (ت ٢٣٥هـ)، تحقيق محمد عوامة، دار قرطبة- بيروت، ط ١- ١٤٢٧هـ.
- المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، المؤلف: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ)، المحقق: (١٧) رسالة علمية قدمت لجامعة الإمام محمد بن سعود، تنسيق: د. سعد بن ناصر بن عبد العزيز الشثري، الناشر: دار العاصمة، دار الغيث - السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ، عدد الأجزاء: ١٩
- المعجم الكبير: أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (ت ٣٦٠هـ)، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية- القاهرة، ط ٢- دون سنة نشر.
- المفردات في غريب القرآن: أبو القاسم الحسين بن محمد (الراغب الأصفهاني) (ت ٥٠٢هـ)، دار القلم- دمشق، ط ١- ١٤١٢هـ.
- المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم: أبو العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي (ت ٦٥٦هـ)، تحقيق مجموعة من الباحثين، دار ابن كثير- دمشق، ط ١- ١٤١٧هـ.
- النهاية في غريب الحديث والأثر: مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري (ابن الأثير) (ت ٦٠٦هـ)، تحقيق محمود الطناحي وظاهر الزاوي، دار إحياء الكتب العربية/ القاهرة، دون رقم طبعة

وسنة نشر.

- تاج العروس من جواهر القاموس: محمد مرتضى الحسيني الزبيدي (ت ١٢٠٥هـ)، تحقيق مجموعة من العلماء، نشر وزارة الإرشاد الكويتية، ط- ١٣٨٥هـ.
- تفسير القرآن العظيم: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (ت ٧٧٤هـ)، تحقيق سامي بن محمد السلامة، دار طيبة- الرياض، ط٢- ١٤٢٠هـ.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري): أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (٣١٠هـ)، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، ط١- ١٤٢٢هـ.
- جامع الترمذي: أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (ت ٢٧٩هـ)، حكم على أحاديثه وآثاره وعلق عليه محمد ناصر الدين الألباني، واعتنى به مشهور بن حسن سلمان، مكتبة المعارف- الرياض، ط١-.
- جامع العلوم والحكم: زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين البغدادي (ابن رجب الحنبلي) (ت ٧٩٥هـ)، تحقيق طارق بن عوض الله، دار ابن الجوزي- السعودية، ط٨- ١٤٣٠هـ.
- جامع بيان العلم وفضله: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر القرطبي (ت ٤٦٣هـ)، تحقيق أبي الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي- السعودية، ط٣- ١٤١٨هـ.
- حاشية مسند الإمام أحمد بن حنبل (حاشية السندي على المسند) (ط. الأوقاف القطرية)، المؤلف: نور الدين محمد عبد الهادي السندي أبو الحسن، المحقق: نور الدين طالب، الناشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - قطر، سنة النشر: ١٤٢٨ - ٢٠٠٨، عدد المجلدات: ١٧
- حلية طالب العلم: بكر بن عبد الله أبو زيد، دار ابن الجوزي- الدمام، ط١- ١٤٢٩هـ.
- ذخيرة العقبي في شرح المجتبي (شرح سنن النسائي): علي بن آدم الإثيوبي الولوي، دار المعراج الدولية للنشر- الرياض، ط١- ١٤١٦هـ.
- روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني: شهاب الدين محمود بن عبد الله الألويسي (ت ١٢٧٠هـ)، تحقيق علي عطية، دار الكتب العلمية- بيروت، ط١- ١٤١٥هـ.
- روضة العقلاء ونزهة الفضلاء: أبو حاتم محمد بن حبان البستي (ت ٣٥٤هـ)، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية- بيروت.
- سلسلة الأحاديث الصحيحة: محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف- الرياض، ط١- ١٤١٥هـ.
- سنن ابن ماجه: أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (ت ٢٧٣هـ)، حكم على أحاديثه وآثاره وعلق عليه: محمد ناصر الدين الألباني، واعتنى به: مشهور بن حسن سلمان، مكتبة المعارف- الرياض، ط١-.
- مسند الدارمي المعروف بـ (سنن الدارمي)، المؤلف: أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام بن عبد الصمد الدارمي، التميمي السمرقندي (المتوفى: ٢٥٥هـ)، تحقيق: حسين سليم أسد الداراني، الناشر: دار المغني للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ - ٢٠٠٠ م، عدد الأجزاء: ٤.
- سيرة ابن إسحاق: محمد بن إسحاق (ت ١٥١هـ)، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر- بيروت، ط١- ١٣٩٨هـ.
- شرح النووي على مسلم: أبو زكريا محي الدين يحيى بن شرف النووي (ت ٦٧٦هـ)، دار إحياء التراث

- العربي- بيروت، ط٢- ١٣٩٢هـ.
- عبقرية الإمام الشافعي المدد والمداد: مشاري بن سعد الشثري، مركز البيان- الرياض، ط١- ١٤٤٠هـ.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري: شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت٩١١هـ)، صححه وأشرف على طبعه محب الدين الخطيب، دار المعرفة- بيروت، ط١- ١٣٧٩هـ.
- فقه الأخلاق بين المؤمنين: مصطفى بن العدوي، دار ابن رجب- المنصورة، ط٢- ١٤٢٢هـ.
- فقه السيرة: محمد الغزالي (ت١٤١٦هـ)، تخريج محمد ناصر الدين الألباني، دار القلم- دمشق، ط١- ١٤٢٧هـ.
- كتاب الضعفاء: أبو جعفر محمد بن عمرو العقيلي المكي (ت٣٢٢هـ)، تحقيق عبد المعطي أمين قلجعي، دار الكتب العلمية- بيروت، ط١- ١٤٠٤هـ.
- لسان العرب: جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن منظور المصري (ت٧١١هـ)، دار صادر- بيروت، ط٣- ١٤١٤هـ.
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: نور الدين أبو الحسن علي بن أبي بكر بن سليمان الهيتمي (ت٨٠٧هـ)، تحقيق حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي- القاهرة، ط١- ١٤١٤هـ.
- مجموع الفتاوى: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم بن تيمية (ت٧٢٨هـ)، نشر مجمع الملك فهد- المدينة النبوية، ط١- ١٤١٦هـ.
- مدارج السالكين في منازل السائرين: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (ابن قيم الجوزية) (ت٧٥١هـ)، تحقيق محمد أجمل الإصلاحي، دار عالم الفوائد- مكة، ط١- ١٤٤٠هـ.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل (ت٢٤١هـ): تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة- بيروت، ط٢- ١٤٢٠هـ.
- معجم البلدان: شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي (ت٦٢٦هـ)، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية- بيروت، ط١- ١٤١٠هـ.
- مقاييس اللغة: أبو الحسين أحمد بن فارس (ت٣٩٥هـ)، تحقيق شهاب الدين أبو عمرو، دار الفكر- بيروت، ط٢- ١٤١٨هـ.
- مناقب الشافعي: أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت٤٥٨هـ)، تحقيق السيد أحمد صقر، مكتبة دار التراث- القاهرة.
- منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم بن تيمية الحراني (ت٧٢٨هـ)، تحقيق محمد رشاد سالم، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود- الرياض، ط١- ١٤٠٦هـ.
- وأظلمت المدينة: نزار بن عبد القادر الريان، دار المنهاج- جدة، ط٢- ١٤٣٤هـ.